لذة العابر وإيروتيكية الجسد عند ألبير كامي

أ. د. حسن حماد (ضيف شرف المؤتمر)
أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة وفلسفة الجمال
كلية الآداب – جامعة القاهرة
العميد الأسبق لكلية الآداب جامعة الزقازيق
أستاذ كرسي الفلسفة باليونيسكو – جامعة الزقازيق

من العبث إلى التمرد:

العبث كما يحدده "كامي" في كتابه "أسطورة سيزيف": هو فشل العقل في حل شفرة الوجود، فالعبث يتوقف على الإنسان أكثر مما يتوقف على الأشياء.

ويفرق كامي بين "لامعقولية الوجود والعبث الذي يولد في قلب الإنسان" فيقول:

"لقد قلت إن العالم عبث، ولكني كنت متسرعًا جداً، إن كل ما يقال عن العالم، إنه ليس معقولا في ذاته. لكن العبث هو مواجهة هذا اللامعقول، والشوق الجامح للوجود الذي يتردد صداه في القلب الإنساني، إن العبث يتوقف على الإنسان أكثر مما يتوقف على العالم"(١).

"إن العبث هو العلاقة التي تربط بين الإنسان والعالم تماماً مثلما يربط الحب أو الكراهية بين مخلوقين. أو كما يقول كامي: "يولد العبث من خلال هذا التقابل بين الحاجة الإنسانية واللامعقولية الصامتة للعالم"(٢).

إن العبث هو فقدان للمعني وللقيمة وللهدف. وعادة ما يولد العبث في حياة الإنسان بصورة مباغتة، إنه كالصفعة التي يتلقاها المرء على وجهه دون مقدمات، فالعبث يمكن أن يواجهك عند منعطف طريق، أو على باب أحد المطاعم، أو وأنت جالس مع أسرتك، أو داخل أحد المقاهي. فالعبث يستمد وجوده من هذا الميلاد السخيف غير المبرر، إنه لا يرتب موعداً لمجيئه، ولا يمنحك وعداً باللقاء، فهو يأتي في أي لحظة دون مقدمات!(٣).

ويشكل الزمن أحد البواعث الأساسية للعبث، من حيث إننا نحيا وهم الزمن، ونتصور دائما أن المستقبل هو الأفق الذي فيه تتحقق مشاريعنا وأحلامنا، في حين أن المستقبل ليس هو الغد المشرق، وإنما هو النهاية الأليمة التي تنتهي بالموت، والموت لديه هو الحائط العبثي الأخير الذي عند تخومه يتم إجهاض أي محاولة يائسة لتبرير الوهم الإنساني، وهم أن الحياة لها معني! ويستنتج كامي من واقعة الموت: أننا ما دمنا سنموت، فليس لأي شيء معني، والمغامرة البشرية تبدو بلا جدوى(٤).

---

(1) Albert Comus: The Myth of Sisyphus, Trans by Justin O'Brien, Vintage Books, New York, 1955, P.16.

(2) Ibid: P.21.

(3) Ibid: PP 8-10

(4) Ibid: P.12.

غير أن كامي يرفض تماماً الرضوخ للموت، وهو يتخذ من الموت مبرراً للطعن في العدالة الكونية، وذريعة للتمرد الميتافيزيقي، والمتمرد الحقيقي لديه هو الذي "يواجه مبدأ الظلم الذي يراه مطبقاً في هذا العالم بمبدأ العدالة الكامن في نفسه"(١). إنه يقف على أطلال عالمه المنهار مؤمناً بذاته وحريته، إنه يحتج على هذا الموت، على تلك العقوبة الجماعية التي تحيل كل الأشياء إلى عدم، ويرفض هذا الشر الذي يسلب الحياة طعمها ومعناها، ويتمرد على تلك القوة التي تجبره على العيش في هذا الوضع المأساوي(٢).

والشخصية التي تجسد هذا الشكل من التمرد عند كامي هي شخصية الطبيب "ريو" في رواية "الطاعون". إن ريو يرى الأطفال الأبرياء يتعذبون ويموتون دون سبب واضح، وهذا ما فجر بداخله ثورة عارمة ضد هذا الوجود الذي لا يمنحنا سوى الموت والعذاب. ففي حواره مع القس "بانلو" يصرخ قائلاً:

"لا أيها الأب .. سأظل حتى الممات أرفض أن أحب هذا العالم الذي يُلقى فيه الأطفال تحت عجلات التعذيب"(٣).

إن كامي مثل "ريو" يتمرد على الموت، لكنه لا يرفض الحياة، بل كل ما في الأمر أنه يتقبل الحياة ضمن حدود كونه فانياً، لذلك فهو لا ينظر إلى تجربة الوعي بالعبث على أنها تجربة سلبية أو مكروهة، بل على العكس، إن الوعي المدرك للعبث، يمثل البطولة الحقيقية للإنسان. فأبطال العبث، وعلى رأسهم "سيزيف"، هم رمز البطولة الحقيقية، ودليل شرف الإنسان، وشرفهم مستمد من كونهم يرفضون الاستسلام للقدر، يقاومون الأوهام والموت بشجاعة، واعين بسخافة الدراما البشرية، يعلمون علم اليقين أن عظمة الملوك وهمية، وأن الموت سينهي كل شيء، وسيأتي علينا يوم بعد آلاف السنين قد يفشل فيه علماء الآثار في اكتشاف دليل واحد على آثار هذا الزمن الذي نحيا فيه!(٤).

---

(1) Comus: The Rebel : An Essay on Man and Revolt, Trans by Antony Bower, Vintage Boots, New York, 1956: P.24.

(2) Ibid :Loc . Cit

(٣) ألبير كامي: الطاعون، ترجمة كوثر عبدالسلام البحيري: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة: د. ت، ص ٢٧٨.

(4) Camus: The Myth of Sisyphus, P. 58, 66

التخلي عن الأمل وحب الحياة:

يجسد الإنسان العبثي عند كامي هذه المفارقة العجيبة، فقدان الأمل وحب الحياة، وعلى الرغم من تخليه عن الأمل، فهو ليس يائساً ! لأن حرمانه من الأمل والمستقبل يمنحانه مزيداً من القوة والشجاعة. إنه أقرب ما يكون إلى الإنسان الأعمى المتشوق دوماً إلى الرؤية، رغم يقينه أن الظلام دامس، وأن ليله لن ينتهي أبداً[١].

إن الأمل هو نوع من الخيانة بالنسبة لكامي، وإذا كانت هناك خطيئة ضد الحياة، فهي ليست اليأس منها، بقدر ما هي الأمل فيها. ويرى كامي أن اليونانيين قد أطلقوا من صندوق باندورا "الأمل" بعد أن أطلقوا سائر الشرور والأوبئة، وكان أكثرها رعباً من وجهة نظره: "إنني لا أعرف رمزاً يهيج النفس كهذا الرمز، ذلك أن الأمل، خلافاً لما يظن يعادل الرضوخ، وأن تعيش، فهذا معناه ألا ترضخ"[٢].

والعبثي يتخلى عن الأمل تجاه مجالين أساسيين[*]: حلم الفهم الكلي للوجود، وحلم الأبدية، لكن العبثي ليس بلا أمل في الحياة ذاتها. إن كل ما في الأمر أنه يتقبل الحياة ضمن حدود كونه فانياً[٣].

إن التخلي عن الأمل لا يعني عند كامي كراهية الحياة، بل هو ما يزيد من تشبثنا وحبنا للحياة، فإذا كانت الحياة بلا معني، فليس هذا مبرراً للفرار منها بالانتحار، إنما علينا أن نختار الحياة. فغياب المعني لا يفقد الحياة طعمها ولونها، بل العكس عند كامي، "إنها يمكن أن تعاش بصورة أفضل حتى لو كانت بلا معني ... فالحياة هي إبقاء العبث حياً"[٤].

إن التجربة العبثية لا تعني الكفر بالحياة، إنها على الرغم من قساوتها تعني مزيداً من الحياة، بل إنها تقذفني في الحياة ذاتها، ولكن بصورة جديدة أكثر تحرراً وأكثر امتلاكاً للذات. ويعبر كامي عن تمجيد الحياة بقوله:

"إنني أحب هذه الحياة حباً لا تكلف فيه، وأريد أن أتكلم عنها بحرية: إنها تمنحني

---

(1) Camus: The Rebel, P. 24.

(٢) ألبير كامي: أعراس ، ترجمة: جورج طرابيشي، ص ٤٥.

(٣) جرمين بري: ألبير كامي، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١، ص ٢٢١ز

(4) Camus: The Myth of Sisyphus, P. 40.

كبريائي لكوني إنساناً. ومع ذلك، ما أكثر ما قيل لي هذا: لا شيء يدعو للفخر، بلى، ثمة ما يدعو إلى ذلك: هذه الشمس، هذا البحر، فقلبي المتوثب بالشباب، جسدي بما فيه من طعم الملح، والمدى اللامحدود الذي يلتقى فيه الحنان والمجد في الصفرة والزرقة. فلأقف قوتي وطاقتي على تحقيق ذلك. كل شيء هنا يتركني بكراً، فأنا لا أتخلى عن شيء من ذاتي، ولا أتحجب بأي قناع: يكفني أن أتعلم بصبر علم الحياة الصعب الذي يفوق كل فنون الحياة"(١).

مملكة الحاضر ويقين الجسد:

لقد قال الشاعر "جوته" ذات يوم: "إن مجالي هو الزمن"، وهذا القول يصدق على الإنسان العبثي الذي يتعرف على وجوده، ويتذوق خواءه، ويحيا مغامرته داخل حدود حياته الفانية. والمجال الوحيد الذي يملكه الإنسان العبثي هو اللحظة، "فجهنم الحاضر هي مملكته في النهاية"(٢).

إن اللحظة الحاضرة هي كل شيء عند كامي، لأن الحاضر هو اللحظة التي يملكها العبثي، لأنه يمثل اللحظة العابرة، الفانية، الزائلة. الحاضر يجسد ما هو إنساني تجسيداً صادقاً. إنه الأفق الحقيقي لممارسة التحرر البشري. إننا في اللحظة الراهنة نقف وجهاً لوجه أمام مصيرنا المحدود، ونعانق اللحظة الحية الغاربة، اللحظة الممتلئة بالوجود، النابضة بوهج الحياة.

إن كامي مثل نيتشه يدعونا إلى العودة إلى الأرض، وإلى التشبث بالجسد، إنه يبقي فقط على الحقائق الأولية التي تمليها الحواس ويفرضها الجسد، أو كما يقول كامي: "فالجسد، والعاطفة، والعالم، والسلوك، والسمو الإنساني، كل هذا سيعود إلى سابق مكانه في هذا العالم المجنون، وسيجد الإنسان مرة أخرى خمر العبث، وخبز اللامبالاة اللذين يمدان عظمته بما تقتات به من العالم"(٣).

إن كل النماذج البطولية التي تجسد العبث هي نماذج جسدانية: جسدها هو ثروتها الحقيقية: سيزيف، الممثل، المغامر، دون جوان. كل هؤلاء يعيشون بالجسد، ومجدهم مشيد على مملكة اللحم والدم. ولعل النموذج الأخير: "دون جوان" يعبر أصدق تعبير عن شكل

---

(١) كامي: أعراس، ص ١٧.

(2) Camus: The Myth of Sisyphus, P. 39.

(٣) نقلاً عن جون كروكشانك: البير كامي وأدب التمرد، ترجمة جلال العشري، الوطن العربي، د.ت، ص ٨٦.

جديد من الأخلاقيات يناهض أخلاقيات القديسين والفلاسفة المثاليين. إن هذه الأخلاقيات الجديدة يسميها كامي أخلاقيات الكم، أو أخلاقيات الجسد في مقابل أخلاقيات الكيف أو الروح. تُرى ماذا يعني كامي بأخلاقيات الكم؟

يرى كامي أن الأخلاقيات القديمة أو أخلاقيات القدسين تعتمد على الكيف لا الكم. أما أخلاق الكم، فتعني تعدد التجارب وتنوعها، فليس مهماً أن تتعمق عاطفة ما، وإنما على المرء أن ينفجر على سطح العالم في ازدهار مستمر من الأحاسيس التي لا تنضب، مثلما كان يفعل دون جوان في تكرار علاقاته النسائية، فلا ينبغي على المرء أن يكون عبداً لتجربة واحدة، وإنما يجب أن يحيا أكبر قدر ممكن من التجارب. إن على المرء أن يضرب جميع الأرقام القياسية. إن نجاح حياة عبثية لا يتجلى بالعمق، وإنما بالمدة التي تقاس بكل بساطة، بعدد الثواني والدقائق والساعات والأيام والسنين التي يحياها الإنسان(١).

إن الحب الذي ينشده كامي حب لا يقتات إلا من الجسد، والمجد الحقيقي لديه هو ذلك المجد المرتبط بهذا النوع من الحب: "إنني أفهم هنا ما يسمي بالمجد: الحق في الحب إلى ما لا نهاية. ليس في هذا العالم إلا حب واحد. فعناق جسد امرأة هو أيضاً عناق لهذا الفرح الغريب الذي يهبط من السماء إلى البحر"(٢).

لذلك يرفض كامي كافة تجارب الحب الرومانتيكي الذي يميل إلى الحزن والشقاء واستعذاب الألم، ويقول: ".. لا شيء هنا يدعو إلى التعلق بعشاق تعساء. لا شيء باطل كأن يموت المرء من أجل حب. إنما الحياة أجدر به"(٣).

إن كامي لا يبالي بعالم الروح، بل ويعتبر الروح تابعة للجسد، ولا معني لها خارج ما هو جسدي. ولا يقف عند هذا الحد بل إنه يتعامل مع النشوة الجنسية وكأنها وسيلة يستعيد من خلالها الإنسان فردوسه المفقود، ويصل من خلالها إلى لحظة تشبه المطلق، ولقد كان شاعر فرنسا الكبير "بودلير" يطلق على النساء الداعرات "الساعيات إلى اللانهاية"، وإذا بالجنس لديه يصبح ديناً، أو كما كان يسميه دينامعكوساً(٤).

---

(١) روبيردولوبيه: كامي والتمرد، ترجمة سهيل إدريس، سلسلة قضايا الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٥٥، ص ص٢٢-٢٣.

(٢) كامي: أعراس، ص ١٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٥٥.

(٤) كوستي بندلي: الجنس ومعناه الإنساني، مكتبة نبع الفكر، القاهرة، ١٩٧٩، ص ١٦١.

ويعبر ألبير كامي في كتابه "السقطة" عن معني قريب من هذا المعني الذي يشير إليه بودلير. يقول كامي على لسان أحد شخصياته:

"ولأنني كنت أحن إلى الحياة الأبدية، كنت أذهب إلى الفراش مع البغايا وأشرب الخمر ليالٍ بكاملها. وفي الصباح كان فمي يمتلئ حقاً بالمذاق المر الذي تتسم به حالة الفناء. ولكنني كنت حلقت ساعات طويلة في دنيا السعادة .. ما أزال أذكر بتلهف ليالٍ معينة كنت أذهب فيها إلى نادٍ ليلي عادي لأقابل امرأة تمتهن مراقصة الآخرين، كانت تسبغ عليّ نعمها.. وكنت أتعلق بالبار في كل ليلة في النور الأحمر والغبار اللذين يتصف بهما ذلك الفردوس الأرضي"[1].

إن الجسد الإيروسي هو وسيلة الإنسان العبثي الوحيدة للخلاص من أوهام الخلود وزيف الأخلاق الطهرانية للقديسين وللفلاسفة المثاليين. ويبدو أن وعي كامي بمحدودية وهشاشة الوضع البشري لم يمنعه من أن ينشد درباً من السعادة القاحلة التي تقوم على لذة عابرة تتواءم وتتناغم مع صفة الزوال التي تميز الوجود الإنساني بوصفه وجوداً فانياً، وعابراً، وعارياً، ومتحرراً من أية قوة سماوية تمنحه الأمل، أو تهبه الخلود، أو تلهمه اليقين!

(١) كامي: السقطة، نقلها إلى العربية أنيس زكي حسن، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٣، ص ص ٨٥-٨٦.